العودة إلى الكتابة في الموضوع الفلسطيني
قراءة في ديوان حالة حصار

عادل الأسطة

يكتب محمود درويش في ديوانه الأخير " حالة حصار " (٢٠٠٢) المقطع التالي:

" كتبت عن الحب عشرين سطراً

فخيل لي

أن هذا الحصار

تراجع عشرين متراً" (ص٥٨)

ويعيد هذا المقطع قارئ الأدب الفلسطيني إلى طبيعة الموضوعات التي خاض فيها الأدباء الفلسطينيون وملاحظات الدارسين حول ذلك، بل وما ورد في بعض النصوص الأدبية الفلسطينية أيضاً حول ذلك.

وكنت أتيت على هذا، وأنا أدرس مجموعة أكرم هنية الأخيرة" أسرار الدوري"(٢٠٠١) التي كُتِبَتْ أكثرُ قصصها، مثل أشعار " حالة حصار " كلها، عن انتفاضة الأقصى(٢٨/٩/٢٠٠٠ ...).

لاحظت سلمى الخضراء الجيوسي في " موسوعة الأدب الفلسطيني " أن أكثر الأدباء الفلسطينيين يكتبون في الموضوع السياسي وأنهم لم يطرقوا موضوعات أخرى إلا نادراً، وأراد بطل قصة أكرم هنية " سحر الحب " أن يكتب قصة تؤنسن الفلسطيني وتحوله من بطل وحالة وقضية إلى إنسان عادي يسير في زحام شوارع العالم دون أن يثير انتباه أحد، شخص يحب ويضحك ويخدع ويصادق ويخون ويهرّج ويموت لأسباب عادية. ولكنه عاد وكتب، بسبب الانتفاضة، في الموضوع السياسي.

ودرويش نفسه كتب " سرير الغريبة "(١٩٩٩) و " جدارية "(٢٠٠٠). تمحورت قصائد الأول حول العلاقة بين الرجل والمرأة، ودارت جدارية حول تجربة شخصية للشاعر مع الموت، وجاءت الانتفاضة ليكتب الشاعر قصيدة " محمد " (الأيام ٢١/١٠/٢٠٠٠) وقصيدة " قربان "(الكرمل، ع٦٦، شتاء ٢٠٠١) و " حالة حصار " (الكرمل، ع٧٠/٧١ شتاء وربيع ٢٠٠٢) ، ليصدر الأخيرة، دون " محمد " و " قربان "، في كتاب صدر عن دار رياض الريس في بيروت

(٢٠٠٢). وهكذا شكل " سرير الغريبة " و " جدارية " عشرين سطراً، وظن، حين كتبهما، أن الحصار تراجع عشرين متراً.

ولكن الحصار عاد، فعاد درويش ليكتب " حالة حصار ". وفي هذه لم ير أمامه إلا الفلسطيني والإسرائيلي والصراع على المكان، وحول هذه كلها كانت أشعاره تدور.

الفلسطيني:

يغدو الفلسطيني، زمن الحرب، مثل السجناء والعاطلين عن العمل: يربي الأمل. ويغدو أقل ذكاءً، لأنه لا يفكر إلا بشيء واحد: النصر – أي الخلاص من الاحتلال، لكأن تفكيره لا ينصرف إلا لهذا.

ويرى حياته في موته، وينسى الألم. وتنظف الفلسطينية العلم، ولا تعلق حبل الغسيل. ويرى الشاعر تحت كل حجر قمرا/ شهيداً.

الفلسطيني يحب الحياة، ولكنه وحيد، وهو لا يعرف الفرح، وهذا يثيره فهو يسأل: هل نسيء لأحد لو شعرنا بالفرح. ويتذكر في حالة حصاره إخوته العرب المحاصرين من حكامهم الذين يشعرون أنهم أيضاً محاصرون. ولا يخسر الفلسطيني البشر والشجر وحسب، إنه يخسر الفن.

" خسائرنا: من شهيدين حتى ثمانية
كل يوم
وعشرة جرحى
وعشرون بيتاً
وخمسون زيتونة،
بالإضافة للخلل البنيوي الذي
سيصيب القصيدة والمسرحية واللوحة الناقصة" (ص٣٨)

ولا يحزن الفلسطيني لأشياء شخصية، وهو لا يلتفت إلى تفاصيل الحياة اليومية، لأنه مشغول بالهم العام. يعزي الفلسطيني أخاه بابنه الذي استشهد، وسرعان ما يهنئه بمولود جديد. يريد أن يتزوج فيقتل، وتعود العروس إلى أهلها باكية. العرس الفلسطيني لا يكتمل، فالفتاة الفلسطينية ترتدي ملابسها وتنتظر حبيبها حتى يعود، ولا يعود. ويتذكر المرء هنا مقطع درويش في" محاولة رقم ٧":

" هذا هو العرس الفلسطيني

لا يصل الحبيب إلى الحبيب
إلاّ
شهيداً أو شريد".

ويجلس الفلسطيني على شرفة منزله ليشرب البابونج فتأتيه رصاصة قاتلة. وتفرح الأم للعروسين فيقتلان وتصاب هي بالشلل.

ولأهل فلسطين هدف واحد هو: أن يكونوا، وبعدها هم مختلفون على كل شيء. ولا بيت للفلسطيني. إنه يفكر في مسكن بعد عقد النكاح وهذا يذكرنا بقصيدة" مطار أثينا" التي كتبها بعد الخروج من بيروت (١٩٨٢):

" مطار أثينا يوزعنا للمطارات. قال المقاتل: أين أقاتل؟ صاحت به حامل: أين أهديك طفلك".

ويذكرنا بـــ" صهيل على السفح":

" أعد لسيدتي صورتي، علقيها إذا مت فوق الجدار، تقول: وهل من جدار لها؟ قلت: نبني لها غرفة.

- أين ... في أي دار ؟".

ولا يكره الفلسطيني اليهودي، إنه يكره الاحتلال. ويحاول الأطفال أن يلعبوا فيقتلون. وللفلسطيني قلب، كما لليهودي في " تاجر البندقية " قلب، وله أيضاً، مثله، عينان تدمعان. الفلسطيني بسيط، والشهيد الفلسطيني لا يريد إزعاج الآخرين بقصائد يكتبها الشعراء عنه. إنه يفتش عن الحياة في الحياة، وهو لم يذهب للموت إلا حين لم يجد الحياة، لعله يجدها هناك في الأبدية. إن الجمال في نظره يكمن في حريته، هكذا يقول الشهيد للشاعر: لا جمال خارج حريتي. بل ويطلب منه ألا يصدق زغاريد النساء حول استشهاده، إنه يطلب من الشاعر أن يصدق دموع أبيه التي تذرف على هذا الفقدان.

والشهيد الذي يستشهد لا يخسر شيئاً سوى موقعه وأثاثه الفقير. إنه هنا مثل جحا الذي سأله ابنه، وهما سائران في جنازة، عن القبر، فلما وصفه الأب للابن قال الابن: إننا ذاهبان إلى بيتنا. حقاً ماذا يخسر الشهداء؟

الإسرائيلي:

الإسرائيلي هو الطرف الثاني الحاضر بقوة في" حالة حصار" وكان الإسرائيلي دائماً حاضراً في أشعار درويش، سواء في القصائد التي كتبها عن" جندي يحلم بالزنابق البيضاء" أو " الكتابة على ضوء بندقية" أو" عندما يبتعد" أو" بين ريتا وعيوني بندقية" أو" شتاء ريتا الطويل"، أو في القصائد التي صور فيها معاناة الفلسطيني.

ما من قصيدة كتبها درويش عن الفلسطيني، إلا وكان الإسرائيلي فيها الطرف الثاني. قد يكون حاضراً في النص، وقد يكون حاضراً حتى في الغياب عن النص.

هنا يكتب درويش عن جنرال ينقب عن دولة نائمة تحت أنقاض طروادة القادمة. ويكتب عن الجنود الذين يقفون على عتبات بيوت الفلسطينيين ويحتلون صباحاتنا، عن الجنود الذين يبولون تحت حراسة دبابة – وكان درويش ومعين بسيسو في بيروت ١٩٨٢ كتباً قصيدة مشتركة خاطباً فيها هذا الجندي الذي يقضي العمر في دبابة – اليهودي في" حالة حصار" قاتل، وهو ينسى ماضيه، ينسى أمه التي قتلت في غرفة الغاز تحت الحكم النازي. إنه يريد، بالقتل، أن يستعيد هويته. يقتل اليهودي الفلسطيني الذي قد يتزوج ابنة اليهودي، وقد يخلفان: اليهودي والفلسطيني طفلة تكون يهودية بالولادة، وهكذا يقتل الثلاثة ويقضي على عائلته: على ابنته وحفيدته. ويظل الإسرائيلي حاضراً في ذهن درويش وهو يكتب. الإسرائيلي حارس يحرس أحلامنا، وهو قد يستمع إلى الأغنيات التي استمع إليها الشهداء، وإذا كانت الهدنة ستسبب لنا سلاماً مع النفس لنتبارى على حب أشيائنا، فإن الإسرائيليين يجيبون:

ألا تعلمون بأن السلام مع النفس
يفتح أبواب قلعتنا
لمقام الحجاز أو النهوند؟" (ص٨٧)
وليس أمامنا إلا نقول: وبعد .. وبعد .. ؟

المكان:

المكان هنا أيضاً له حضوره. إننا نحيا في بساتين مقطوعة الظل، في بلاد على أهبة الفجر. تبدو السماء رصاصية في الضحى، ولكنها في الليالي، بسبب قنابل الإضاءة، برتقالية. ويغدو شجر السرو مآذن. والمكان مزدحم، ومديحه مثل هجائه، إن هذين: المديح والهجاء مهنة. والمكان يحملق في عبث الأزمنة.

و:

هذه الأرض واطئة، عالية

أو مقدسة، ذاتية

ونحن:

" لا نبالي كثيراً بفقه الصفات

فقد يصبح الفرْجُ،

فرْجُ السموات،

جغرافية"(ص٧٦).

وقليل من المطلق الأزرق اللانهائي يكفي لتخفيف وطأة هذا الزمان، وتنظيف حمأة هذا المكان.

الأسلوب:

يتنوع الأسلوب هنا ويتعدد، فمن سرد يبدأ بجملة اسمية إلى آخر يبدأ بجملة فعلية إلى مقطع حواري، إلى خطاب يوجه الشاعر إلى مرسل إليه محدد، حتى لكأن القصيدة تخص شـــخصاً بعينه دون غيره، وتكرر الأسلوب الأخير غير مرة، وخاطب فيه صاحبه البشر والأشياء/ الكلمات.

[إلى ناقد / إلى قاتل / إلى قاتل آخر / إلى الليل / إلى الموت / إلى الشعر / إلى النثر / إلى الشعر والنثر / إلى شاعر / إلى الحب / إلى حارس / إلى حارس آخر / إلى حارس ثالث / إلى شبه مستشرق / إلى قارئ].

هؤلاء هم الأشخاص الذين شغلوا ذهنه في حالة الحصار، وإليهم كان يتوجه. لم يتوجه بالخطاب إلى الضحية أو الجلاد فقط. لقد خاطب الموت والحب والليل، وخاطب أيضاً الشاعر والشعر والنثر. إنه غير قادر على نسيان هذين، بل وخاطب الناقد أيضاً طالباً منه ألا يفسر شعره وفق مقاييس معينة، لأن هذا يحمله ما لا يحتمل ويسبب له الأرق. ودرويش هنا يختلف عن المتنبي الذي قال:

أنام ملء جفوني عن شواردها   ويسهر القوم جراها ويختصم

يقول الشاعر ما يراه، ولكنه أيضاً يعيد صياغة ما يقال له. هكذا تبدأ بعض المقطوعات بجمل اسمية مثل (لا صدى هوميري لشيء هنا) وتبدأ أخرى بجمل فعلية (يقيس الجنود المسافة ...) وثالثة (قال لي كاتب ساخر: ...).

ولا يتخلى درويش عن مفهومه للغة الشعر. لغة الشعر لغة انزياح. هكذا تحتمل المفردة الواحدة معاني عديدة، وهكذا يحضر الدال الواحد بمدلولات عديدة. تسير الأم في جنازة ابنها فتخاطبه: فكن قمراً / في منام الحبيبة ... / كن قمراً. (ص٤٢) ، والابن هنا قمر. ويكون القمر ناقصاً لنا في هذا الليل الطويل. للناس أقمارهم ولا قمر لنا لأننا نخاف من الجلوس على الشرفات. وضوء القمر ماء يغتسل به المحبان:

" السلام أنين محبيْن يغتسلان

بضوء القمر " (ص٩٢).

وكما في أشعار الشاعر السابقة تتشكل الكلمات من كلمات سابقة، وتبدو الكتابة كتابة على الكتابة، ولا كتابة تبدأ من بياض.

يقول درويش:

فلا يلدغ المؤمن المتمرن

من فرح .. مرتين " (ص٢٨)

متأثراً بالنص الإسلامي، وبخاصة حديث الرسول(ص): " لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين ".

ويقول:

" فالحقيقة جارية النص، حسناء

بيضاء من غير سوء " (ص٧٢)

وهو هنا متأثر بالآية القرآنية (أدخل يدك إلى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء). وحتى عبارات العهد القديم، كما في أشعاره السابقة، تتسلل إلى " حالة حصار ":

" إلهي ... إلهي! لماذا تخليت عني " (ص٤٤).

أفكار قديمة / موضوعات قديمة بثياب جديدة:

لقد أعادنا الحصار إلى ما كنا عليه قبل عام ١٩٩٣، منذ ١٩٢١، فهل علينا أن ننسى واقعنا وأن نعيش في عالم آخر؟ لقد جعلنا الحصار، كما قال درويش، أقل ذكاء، لأننا لا نفكر إلا بالخلاص لما نحن فيه. وهكذا عدنا نخوض فيما كنا نخوض فيه. عاد السارد في قصة هنية " سحر الحب " ليكتب مجبراً عن الموضوعات التي أراد أن يتخلص منها، وعاد درويش ليكتب عن الحصار الذي خبره، من قبل، مراراً. يوم كان في فلسطين، قبل ١٩٧٠، كان محاصراً. ثمة إقامة

جبرية، وثمة زنزانة، وثمة تضييق في مجال السفر. وفي بيروت كان محاصراً أيضاً، وبلغ الحصار ذروته في ١٩٨٢، وها هو الحصار يعود. ولكن درويش شاعر ذو خيال خصب وقادر على التلاعب باللغة، وهذا ما ينقذه من التكرار الممل، ويجعل القارئ يقرأه ويعيد قراءته مراراً حتى لو كتب في الموضوع نفسه. أنا شخصياً أفعل هذا. حقاً أنني كلما قرأت جديد الشاعر، تذكرت بين الفينة والفينة بعض قديمه، ولكنني أشعر أن الجديد يأتي أيضاً بجديد. سوف أتوقف هنا أمام أربعة أمثلة للتدليل على ما أذهب إليه:

المثال الأول يرد في المقطع الوارد في ص٣٠. هنا يخاطب الشاعر اليهودي الإسرائيلي، وكان درويش خاطبه من قبل مراراً، وهو ما لاحظناه قبل قليل. فما الجديد إذن؟

هنا يقتل اليهودي جنيناً لو تركه دون قتل لربما غدا زوجاً لابنة القاتل، ولربما أنجبا طفلة تكون يهودية بالولادة. هنا يلتفت درويش إلى مأساة العائلة اليهودية التي شردها الجندي الذي أصاب ثلاث حمائم بالطلقة الواحدة. لكأن المرء يقرأ شيئاً جديداً في الكتابة عن الآخر.

المثال الثاني يرد في المقطع الوارد في ص٤٤، هنا يخاطب الشاعر الموت، ويخبره أنه يعرف من أية دبابة جاء، وماذا يريد. ويطلب منه أن يعتذر للجنود والضباط قائلاً:

" قد رآني العروسان أنظر
نحوهما، فترددت ثم أعدت العروس
إلى أهلها .. باكية" (ص٤٤).

وكما أشرت، فإن هذا المقطع يذكرنا بمقطع ورد في" محاولة رقم ٧"(١٩٧٤).

المثال الثالث يرد في ص٥٢، ونصه:

" كيف أحمل حريتي، كيف تحملني؟ أين
نسكن من بعد عقد النكاح... ".

وكما ذكرت فإنه يذكرنا بما ورد في قصيدة" مطار أثينا" (١٩٨٣).

والمثال الرابع يرد في ص ٨٤، ونصه:

" أصدقائي يعدون لي دائماً حفلة
للوداع، وقبراً مريحاً يظلله السنديان
وشاهدة من رخام الزمن

فأسبقهم دائماً في الجنازة:

مَنْ مات .. مَنْ. "

ويذكر هذا بما ورد في مديح الظل العالي، حين يأتي على ذكر الشهيد سمير درويش، بل ويذكر أيضاً بقصيدة" يحبونني ميتا" و" رأيت الوداع الأخير"، ولعل أهم من هذه كلها المقطع:

" بيروت/ ليلا:

يمدح الشعراء قتلي في مجالسهم

ويرتعدون مني حين أطلع بينهم صوتاً وظلا"

(ديوان/ ج٢/ ط١٩٩٤/ ص٤٦).

النص الغائب:

يقول درويش في مقطع من" حالة حصار"

" سيمتد هذا الحصار إلى أن نعلم أعداءنا

نماذج من شعرنا الجاهلي" (ص١١)

والنص الغائب هنا هو النماذج من الشعر الجاهلي. ما هي هذه النماذج وماذا نعلم أعداءنا منها؟ هنا يجتهد كل قارئ في التفسير. هل نعلمهم لامية العرب وشعر الشعراء الصعاليك، أم نعلهم معلقة عمرو بن كلثوم، أم نعلمهم معلقة زهير. وكل واحدة من هذه تذهب مذهباً مختلفاً. هكذا أرى.

والنص الغائب في" حالة حصار" كثير، وقد يعرفه القارئ، وقد يحتاج إلى البحث عنه. مثلاً حين يكتب درويش:

" هنا، بعد أشعار"" أيوب" لم ننتظر أحداً"(ص١١)

فإن أشعار أيوب تبدو حاضرة لمن قرأها، ويحتاج من لم يقرأها إلى البحث عنها ليقرأها، ولتكون متممة للنص الدرويشي. إنه النص الآخر الذي يتمم النص غير التام، النص الحاضر. ولعل هذه قراءة أولى للديوان.